

باسمه تعالى

2 - حقيقة دور العلماء المهاجرين من جبل عامل إلى إيران

في العصر الصفوي

الشيخ د. جعفر المهاجر

ثمة مقولةٌ مُتداولةٌ على نطاقٍ واسعٍ ، تقول أن الدولة الصفوية (907 - 1200 هـ / 1501 - 1785م) ، التي وُحِّدَت إيران كما لاتزال حتى اليوم ، قد نهض مشروعها التوحيدي على قاعدةٍ من فرض التشيع فرضاً على أهلها الذين كانوا من أهل السنّة بالقوّة والإكراه . ثم أن هناك من يُضيف إلى هذه المقولة ، أن ذلك التشيع المفروض هو نمطٌ مختلفٌ عن التشيع الأصلي والأصيل .

إن تكن المقولة الأولى سائرةً وشبه مُسلّمة وخارج كل نقاش عند الكافة في حدود ما نعرف ، فإن المقولة الثانية قد أغرب بها وبني عليها الدكتور على شريعتي في كتابه الذائع الصيت *التشيع العلوي والتشيع الصفوي* .

ومن المعلوم والثابت أن عبء تنفيذ القرار السياسي للسلطة الصفوية ، الذي قضى بنشر الثقافة الشيعية في أنحاء إيران ، قد نهض به علماءٌ هاجروا إلى إيران من جبل عامل ، هرباً من جور الدولة العثمانية التي احتلت بلادهم ، وقتلت أبرز علمائها آنذاك زين الدين بن علي الجباعي/الشهيد الثاني . ممّا بسطنا الكلام عليه في كتابنا *الهجرة العاملة إلى إيران في العصر الصفوي أسبابها التاريخية ونتائجها الثقافية* . فإن علينا أن نُبيّن كيف وماذا عملوا .

بُغيتنا في هذه المقالة أن نتفحص المقولتين . نتساءل هل أن ما نهض به علماء جبل عامل تحت ظلّ الدولة الصفوية هو من قبيل فرض انصاع له مئات الألوف من البشر انصياعاً ، تحت وطأة التهديد بالقتل أو بالعقاب القاسي ؟ وهل إن التشيع الذي ساد إيران مُذ ذاك مختلف عن التشيع الذي كان مُتأصلاً في أنحاء العراق وبعض الشام ؟ نتفحص المقولتين بذهنية المؤرخ الحرّ . المُلمّ إماماً كافياً بمواصفات تلك الفترة الانقلابية من تاريخ إيران ، وبأعمال العشرات من العلماء العاملين الذي نزلوا أنحاءها وخلفوا فيها الباقيات الصالحات .

ثمة حقيقتان ينبغي الوقوف عليهما ، وأخذهما بعين الاعتبار في مطلع البحث

هما :

– الأولى : إن أرباب الطريقة الصفويّة الصوفيّة ، التي أنجبت الشاهات الصفويين ، منذ مؤسسها وبانيها صفيّ الدين إسحاق في أردبيل حتى ثاني شاهاتها الشاه طهماسب الأول (930_984هـ / 1524 - 1576م) لم يكونوا شيعةً إماميةً مثلما نفهم نحن التشيع الإمامي . بل كانوا من أتباع الطريقة البكتاشيّة ، التي ما تزال منتشرةً في الأناضول وتركيا وألبانيا وبعض البوسنة . كما أن لها فروع صغيرة في العراق والهند .

ومن المعلوم أن البكتاشيّة طريقة صوفيّة ، نبتت في إطار التشيع الساذج الذي كان سائداً وما يزال في أنحاء آسية الصغرى وبعض الشام (التشيع الشامي)، على قاعدةٍ من تقديس أهل البيت (ع) إلى حدّ العُلُوّ . وليس لها أدنى علاقة بالتشيع الإمامي الكلامي – الفقهي ، الذي ازدهر وتطوّر في الكوفة وقُوم ونطاقها (الرّي وما وراء النهر) ثم في مدارس بغداد فالحلّة فطرابلس الشام فجل عامل ، ممّا درسناه في كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسه . ومن يقرأ ديوان شعر مؤسس دولتهم الشاه إسماعيل الأول (907_ 930 هـ / 1501 - 1523م) بالتركيّة الآذريّة ، الذي يتخلّص فيه بـ "خطايي"¹ ، ويتمعن بما انطوى عليه من عُلوّ ، ير ماقلناه على هويّة الطريقة الصفويّة بكامل الوضوح والجلال .

– الثانية : حقُّ أن الشاه إسماعيل الأول قد أعمل سيفه ضدّ بعض السنّة ، بأن أمر بقتل بعض فقهاءهم في هراة ، منهم الفقيه البارز ، شيخ الإسلام فيها الشاميّ الأصل ، أحمد بن يحيى التفتازاني ، المعروف بأحمد الحفيد . ولكنّ هذه حالة فريدة لسنا نعرف لها ثانية ، لا ضدّ أحدٍ من النّخبة ، ولا ضدّ الجمهور . ليست تُبرّر إطلاقاً الزّعم السائد القائل أن الصفويين قد نشروا التشيع في إيران بالقوّة والإكراه . ومن المعلوم والثابت أن نهضة التشيع الإمامي في إيران قد وقفت عند حدود هراة ولم تتخطّها قيد أنملة . وما تزال هذه المدينة ونطاقها معمورةً بالسنّة حتى اليوم . فلو أنّ بُعية الشاه ممّا جنته يدها كانت إكراه شيخ الإسلام ومَن يُمثّلهم على التشيع ، ثم لو أنّ ذلك قد أعطى ثمرته المطلوبة وفقاً للزّعم ، لرأينا أثر ذلك أو شيئاً منه على الأقلّ . بل إننا نعرف أنّ عليّاً بن عبد العالي الكركي ، الذي قاد ونظّم التعليم الشيعي في إيران ، قد استنكر عمل الشاه علناً² . الأمر الذي يدلّ دلالةً صريحةً على أن ذهنيّة العلماء

العامليين ، الذين عملوا في البداية تحت إدارة وإشراف الكركي ، كانت بعيدة كل البعد عن فكرة إكراه الناس إكراهاً على التشيع .

ومع أننا لا نعرف السبب الذي أُلجأ الشاه إلى ذلك التدبير العنيف بحق بعض فقهاء هراة ، فإننا على شبه اليقين من أن شيخ الإسلام وفقهاؤه لم يتركوا له خياراً آخر . كان هو يعمل جاداً على خطةٍ مُحكمةٍ واضحةٍ لديه ، تقضي بإنهاء حالة التفتت والتجزئة الدموية التي كانت تُعاني منها إيران . كما كان يُدرك بعبقريته السياسيّة أن لا سبيل له إلى مايروم ، ولن يتم له إلا عبر تعطيل العوامل التي كانت تنخر الجسد الإيراني . وفي طليعتها الفوارق الأقواميّة وما اتخذته من أفعنةٍ مذهبيّة ، مضت تتناحر وتتقاتل دون هوادة.

ثم أن هذه الآليّة كانت وسيلة الإقطاعيين (الخوانين) والمغامرين العسكريين ، ومن ورائهم فقهاء المذاهب ، إلى إشغال الجماهير عن حقوقها المشروعة ، بتسعير كل عوامل التفتت الكامنة ، واتخاذ جانب أحد المذاهب . وبذلك يكسب العسكري والإقطاعي مجاناً ولاء قسمٍ من الجمهور . وهذه قاعدة من قواعد العقل السياسي الشرقي لها ما لا يحصى من أمثال .

ومن المؤكّد أن شيخ الإسلام لو انه أحسن تفهّم ذلك الغرض النبيل للشاه لما مسّه بسوء . بل ولتعاون معه فيما يأول إلى خير الجميع ، كما أثبت تطوّر الأحوال في الأيام القادمة .

نخلص من هذا السرد الدقيق إلى نتيجتين :

– النتيجة الأولى : إن نمط التشيع الذي كان عليه الصفويّون الأوائل مختلفٌ في الصميم عن التشيع الذي سينهض في إيران تحت لوائهم . فهذا يدلّ على أن تأثيرهم في نهضته كان معدوماً .

– النتيجة الثانية : أنه لاصحّة إطلاقاً للزعم القائل أن أرباب السُلطة الصفويين قد فرضوا التشيع على الناس فرضاً . بل إن الواقعة الوحيدة التي تُذكر في سياق بيان الشاهد على ذلك تدلّ ، بما صاحبها من مُلابسات ، على العكس .

لكنّ هذه النتيجة بشقيها سلبية . هي عبارةٌ عن نفيين متوازيين ، لا يُشكّلان بمجموعهما جواباً كما لو كانا مُتعاكسين . الأمر الذي يطرح سؤالاً كبيراً هو :

إذا لم يكن للحكم الصفوي من دورٍ مباشرٍ مقصود بوصفه سُلطةً قاهرةً بأيِّ معنىٍّ من المعاني في نهضة التشيع في إيران ، فكيف إذن حصل ذلك التبدل الشامل المعلوم في وجه إيران في عهدهم ؟

في الجواب نقول : إننا نعتقد أنهم (الصفويون) لم يخلقوا جديداً ، بل أظهروا ما كان كامناً تحت رُكام الوضع السياسي المُغلق ، الذي كانت ترزح تحته إيران من قبلهم . وقد وصفنا من ذلك الوضع ما له علاقة بإشكالية البحث قبل قليل . هذا جوابٌ إجمالي ، توصل إليه الكاتب بوصفه حدساً شخصياً . نشأ في ذهنه نتيجة استيعابه للمُعطيات السكانية . ولكنه لا يجدي كبير نفع للقارئ دون تفصيل . لذلك فإن علينا أولاً أن نتفحص موقع التشيع والشيعة ، من الوجهة السكانية العددية ، في إيران قبل الصفويين . لأنه الطريق الوحيد لبداية بناء تصوُّرٍ أقرب ما يمكن إلى الحقيقة على ما حصل من تبدلاتٍ جذريَّةٍ مظهرية في ذلك العهد . حيث سنرى أن نهضة التشيع فيها في العهد الصفوي كانت نهضةً نوعيةً إجمالاً وليست كميةً عدديةً ، وأنها لم تكن إلا نتيجةً وفرعاً لتحرير إيران من أزمته السياسية التي كانت قابضةً على خناقها .

(2)

في سبيل غرضنا المرحلي المذكور أعلاه سنلجأ إلى المصادر البلدية والتاريخية . مع ضرورة التنبيه إلى أن ما سنستفيدة من تلك المصادر يُثبت ما تعطيه ، ولكنه لا ينفي غيرها . أي أن ما سنقول على التوزيع السكاني للشيعة في إيران قبل الصفويين هو إحصاءٌ ودليلٌ قاصرٌ حتماً ، لأنه يخضع لعامل الصدفة ، صدفة ذكره من قبل المؤلفين ، وصدفة عثورنا عليه . ضرورة أن هذه المعلومات لا ترد في المصادر وُروداً مقصوداً تحت العنوان الذي يهمننا الآن .

وعليه نقول :

إن أكبر تجمعٍ سُكانيٍّ للشيعة في إيران قبل الصفويين ، كان يتركز في الوسط باتجاه الشمال والجنوب . أي في الحواضر الثلاث التي تضمُّها دائرةٌ واسعةٌ مركزها قُم ، ثم الرِّي (طهران اليوم) شمالاً ، فكاشان جنوباً .

هذا التوزيع السكاني يتسق مع حقيقة تاريخية ثابتة . هي أن قُم قد مُصرت على أساسٍ شيعيٍّ صرفٍ ، بهجرة الأشعرين إلى منطقتها من الكوفة . وأنها تطوّرت من تجمعٍ ظرفيٍّ لنازحين مذعورين ، لا يتطلعون إلى أكثر من النجاة بحياتهم ، إلى أن باتت

مركزاً علمياً بفضل رعاية الإمام الصادق (ع) (114-148هـ/732-765م)³ . وما من ريبٍ في أن التشيع قد شَعَّ منها ، بحيث شمل تلك الدائرة التي وصفناها بالواسعة ، بل وتجاوزها إلى ما هو أبعد بكثير . ذلك أن نشاطاتها البحثية على علم الحديث ، تسجيلاً ونقداً وتبويباً ، ما لبث أن اتسع ليُنبت مراكز موازية في الرِّيِّ ، ثم في غير بلدٍ من بلدان ما وراء النهر ، أكثرها أهميّةً سمرقند ، بالإضافة إلى خُجندة وبخارى وفرغانة وبلخ وإيلاق وُخْتَل⁴ . ومن الغني عن البيان أن هذا الانتشار لتأثير قُومٍ في تلك الحواضر وأريافها إجمالاً ليدُلُّ على حاضنةٍ سُكَّانِيَّةٍ كبيرة العدد فيها . ضرورة أنه بدونها لا يمكن أن يكون نهوض تلك المراكز ممكناً . وعلى كل حال ، فإن من الثابت أن أهل كاشان " بلد الإيخان " كانوا شيعةً قبل الصفويين⁴ . وقد استقبلوا الشاه إسماعيل ، يوم دخلها فاتحاً ، بغبطةٍ وحماسة . وكذلك بلدة فين المجاورة⁵ . كما كان كلُّ أهل ماه آباد ، المجاورة أيضاً ، شيعةً إماميةً⁶ .

فإذا تطلَّعنا خارج تلك الدائرة ، فإننا نجدُ تجمَّعاتٍ شيعيةٍ إماميةٍ في كل أنحاء إيران تقريباً: قُرب إصفهان قريةً شيعيةً اسمها آوه⁷ . كان من حظِّها وحُسن حظِّ التشيع منها ، أنها أنجبت شخصيتين من ذوي الأثر في التاريخ الشيعي لإيران قبل الصفويين . أولهما شمس الدين محمد الآوي رسول علي بن المؤيد السَّربداري إلى الشهيد الأول يستحضره إلى إيران . وثانيهما تاج الدين الآوي ، الذي قيل أنه ساهم في دفع السلطان الإيلخاني محمد خدابنده إلى إعلان التشيع مذهباً رسمياً في منطقة حكمه ، التي عاصمتها مدينة سلطانية في آذربايجان . بل حتى إصفهان نفسها كان قسمٌ كبيرٌ من أهلها شيعة⁸ . ساوه المجاورة كان أهلها شافعيةً ، ولكن عُمار ريفها كانوا اثني عشريةً⁹ .

أما المناطق الجبلية على سواحل بحر قزوين ، فقد كان أهل جرجان مشهورين بالتشيع منذ فترة إمامة الإمام الرضا (ع)¹⁰ (183_202 هـ / 789 - 817 م). وكانت جماعاتٌ شيعيةٌ كبيرة تعمر طالقان¹¹ ، وكذلك طبرستان (مازندران) ، التي وهبنا المُفسِّر الجليل الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: 548 هـ/1153م) وتلميذه النجيب الباحث الشهير محمد بن علي ابن شهرآشوب المازندراني (ت:588هـ/1192م) ، وخاصةً في قراها: ساري ، إرم ، أمل¹² ، التي خرج منها الفقيه المُتصوِّف حيدر بن علي الحسيني الأملي (ت:794هـ / 1391م) صاحب التصانيف . ثم في شوشتر ورستمدرار¹³ . إقليم جيلان كان أهله زيديةً . ولكنهم

عندما تمكّنت الدولة الصفويّة لم يجدوا أدنى حرجٍ أو صعوبةٍ في إعلان أنفسهم اثني عشرية¹⁴.

يُضاف إلى كلّ ذلك وجودهم في مراكز متفرّقة عدّة : فراهان من رساتيق همدان ، وتفريش¹⁵ ، واردستان ونهاوند ومشكين¹⁶ ، مع أقليةٍ نسبيّاً ولكنها غير قليلة في قزوین .

إقليم خراسان كان الشيعة الإمامية يتمركزون فيه في نيشابور ، التي كانت من مراكزهم الهامة منذ زمان الإمام الرضا (ع) ، وقد رُويت عنه فيها أحاديث معروفة ، تلقّاها عنه الجُمّ الغفير . كما كانوا في سبزوار ، وأيضاً في طوس التي وُلد ونشأ فيها شيخ الطائفة الشيخ الطوسي ، وفيها على الأرجح تلقّى دروسه الأولى¹⁷ ، قبل أن يهاجر إلى بغداد . ممّا قد يدلّ على وجود نشاطٍ دراسيٍّ فيها في تلك الفترة المبكّرة نسبياً . وفي فاتحة الدولة الصفويّة أقدم الخان محمد شيبان الأوزبكي على ذبح الشيعة فيها بوحشية ، ممّا أثار غضب الشاه إسماعيل فحاربه وقتله¹⁸ . أمّا جنوب إيران فقد كان كلّه شيعياً إمامياً منذ فترة حضور أواخر الأئمة (ع) على الأقل¹⁹ . وإن تلوّث صورته بالغلوّ لفترة أيام الدولة المشعشعيّة . ولكنّه سرعان ما أصلح واستقام ، مأن استعاد التشييع في إيران حرّيته وتوهّجه المعنوي بفضل النهضة الصفويّة²⁰ .

ذلك كلّه فيما يرجع إلى ما تعطينا إياه المصادر، وما عثرنا فيها على ما يُضئى إشكاليّات المُكوّن السُكّاني لإيران قبل الصفويين .

بقي علينا أن نُضيف أن تلك التّجمعات الشيعيّة في مختلف أنحاءها لم تكن خامدة . بل أنشأت عدّة مراكز علميّة ، بعضها من ذوات الأثر المعروف . أهمّها فُهم التي ظلّت زهاء ثلاثة قرون أهمّ وأنشط مركزٍ علميٍّ شيعيٍّ في العالم . أسّس وأطلق سلسلة المراكز الكبرى التالية ، التي تتابع ظهورها في الرّي وما وراء النهر ، ثم في بغداد والحلّة في العراق ، وفي طرابلس الشام وجبل عامل في الشام . وننوّه بنحوٍ خاص بالرّي التي تسلّمت الراية من أمّها فُهم وحملتها لمدة قرنين ، أنجبت أثناءهما المُحدّثين الجليلين الشيخين الصدوق والكليني ، بكتابيهما الرائدتين الباقيين الكافي وكتاب من لا يحضره الفقيه . فضلاً عن مراكز علميّة أقلّ أهميّة في كاشان وآوه وورامين وسبزوار/ بيهق²¹ .

كما أن علينا أن نذكر، في سياق إشكاليّة البحث ، الطُرُق الصوفيّة ، التي استقطبت جمهوراً واسعاً ، كما تفعل دائماً حينها يكون همّ الجمهور متجهماً إلى البحث

عن العزاء عن الافتقار إلى حياة دنيوية سعيدة . لكنّ ممّا لا يخلو من كبير مغزى ، أنّها جميعها ، باستثناء الطريقة النّقشبندية ، قد استقت مادتها من تصوّف ذي صبغةٍ شيعيةٍ ، أو تشييعٍ ذي صبغةٍ صوفيةٍ . من أبرز ممثليه حيدر الآملي الذي ذكرناه قبل قليل . من أبرز تلك الطُّرق الطريقة النُّوربخشية ، التي حاولت إقامة دولةٍ شيعيةٍ صوفيةٍ أثناء السنة 826 هـ / 1423 م²² ، كما سيفعل الصفويون بعد قليل . بيد أن حركتهم أجهضت ، ولكنّ النُّوربخشية استمرت صرفَ حركةٍ صوفيةٍ . التقت مع مرامي الدولة الصفوية . بحيث أن أتباعها لم يجدوا عناءً في إعلان أنهم شيعةٌ إماميةٌ ، تماماً كالزيدية كما قلنا قبل قليل . بل إن ممّا لا ريب فيه أن عناءهم في هذا الإعلان كان أقلّ من عناء الزيدية . وبحيث أن الشاه إسماعيل حينما دخل تُستر كان يرضى من أهلها ، جواباً عن سؤاله عن مذهبهم : " نحن على طريقة السيّد نور الله النُّوربخشي " ²³ .

حصيلة هذا السرد تُنبئ أن الشيعة كانوا الظاهرة السُكّانية الأبرز والأكثر عديداً في إيران قبل الصفويين . وأن التشييع قد أنتج إبانها فكراً إنتاجاً غزيراً ، على مستوى الحديث والفقّه والتصوّف . ممّا لانجد ما يُضارعه أو حتى يُقاربه ، كما وأثراً باقياً ، لدى المذاهب الأخرى فيها .

ثم أنّنا نُضيف الآن ، أن التشييع كان أملاً تعلّقت به الطبقات الضعيفة من الحرفيين سُكّان المُدن ، ومن صغار المُلّاك وأهل الصناعات في غيرها من أهل القرى والأرياف ²⁴ . وأن الحركات الثورية الفلاحية كانت مصبوغةً بالتشييع بنحوٍ أو بغيره ²⁵ . وما من شكّ في أن ذلك يُفسّر للمؤرّخ المحاولات المتعدّدة ، التي عملت على إقامة أنظمة سياسيةٍ شيعيةٍ في إيران قبل الصفويين . ذكرنا منها قبل قليل الحركة النوربخشية . ونذكر الآن أعرّفها وأشهرها . وهما اثنتان :

– الأولى منها تترية إيلخانية . صاحبها السلطان التري غازان خان محمود (679 - 703 هـ / 1280 - 1303 م) ، أوّل السلاطين الإيلخانية في إيران . الذي أعلن تشييعه يوم اعتلى العرش . وضرب نقوداً ذهباً كبيرةً ، مُحلّةً بآيات قرآنيةٍ وبأسماء الأئمة الاثني عشر (ع) . ولكنّ محاولته البكر ظلّت محصورةً ، إلى أن جاء إلى الحكم أخوه أولجايتو محمد خدابنده (703 - 716 هـ / 1303 - 1316 م) الذي أعلن التشييع مذهباً رسمياً للدولة . الأمر الذي هلّل له التشييع في العالم ²⁶ . وما يزال ضريحه في عاصمته سلطانية معروفاً مزوراً حتى اليوم .

– الثانية خراسانية ، بطلها علي بن المؤيد السربداري ملك خراسان ودامغان (766 - 783هـ/1364 - 1381م) ، الذي أعلن التشيع في دولته ، وضرب السكّة بأسماء الأئمة الاثني عشر (ع) . ولكنّ النقطة المضيئة في مشروعه إلى حدّ السطوع ، أنّه في سبيل منح المشروع صفةً فكريّةً إصلاحيّةً على مستوى عامّة الناس ، التفت صوب جبل عامل . فبعث صاحبه شمس الدين محمد الآوي إلى الشهيد الأوّل يستقدمه ، كيما يلي قياد الجانب التعليمي الإرشادي من المشروع ، فأبى واعتذر ، لأنّه كان هو أيضاً مشغولاً بمشروعه الموازي في وطنه²⁷ .

ومّا هو بغنى عن البيان ، أن العاهلين لم يكونا ليقدما على تينك الخطوتين الانقلابيتين بأكثر من معنى ، لو لم يكونا بحاجة ماسّة إليهما سياسياً . أي لو لم تكن ثمة في منطقة سلطتهما قاعدة شعبية شيعية قويّة غالبية بحجمها وعديدها على الأقلّ . لا بدّ في سبيل استتباب الحكم لهما ، من التواضّل والتّماهي معها . بدونها لن يكون لهما أن يحظيا بالرضى والقبول من رعيتهما . وبدون هذا الاعتبار سيكون عملهما خطوة حمقاء بكلّ المقاييس السياسيّة . تنطوي على تحدّد صريح لقاعدتهما الشعبيّة ، لا يُقدم عليها من لديه أدنى معرفة بفن الحُكم وسياسة الأمور بما يُناسبها .

(3)

ومع ذلك . مع كلّ ذلك الحضور الشيعي الغالب في مختلف أنحاء إيران قبل الصفويين ، ومع خلفيته البحثية النشيطة والمنتجة والمنتشرة انتشاراً واسعاً شرقاً وغرباً ، ثم مع من ساهم فيه من أعلام كبار ، وما أنتجوه من تراثٍ علميٍّ أصيلٍ متنوّع ، – مع كلّ ذلك فإنّ كلّ ما بأيدينا من مختلف منابع المعلومات ، يقول باللّغة التي لا يفهمها إلا المؤرّخ التركيبي المحيط المدقّق ، أن ذلك الحضور الكميّ الغالب بات ، إبّان القرون الثلاثة السابقة على الصفويين ، يفتقر افتقاراً شديداً إلى ما يُكافئه على المستوى المعنوي الفكري بكافة وجوهه .

إنّ التشيع الذي بلغ قمّة حضوره الفكري في إيران إبّان القرون الثالثة والرابعة والخامسة للهجرة / التاسعة والعاشر والحادية عشرة للميلاد ، قد انحدر من بعد انحداراً سريعاً . فمّ الأمّ انطفأ سراجها وخبا الضوء الذي شعّته ما حولها إلى مسافة بعيدة . ثم ما لبثت الرّي أن تبعتها ، باستثناء الفترة التي كانت إبّانها بمثابة العاصمة للبويعيين ، خصوصاً زمان عضد الدولة البويهبي الديلمي (324 - 372هـ / 935 - 982م) . أمّا المراكز التي نهضت فيها وراء النهر فقد دُمّرت من قبل تدميراً كاملاً دون

رحمة . بحيث أن حياتها القصيرة ، على غناها ، وعلى ما وهبته للتشيع من مُصنّفات قليلة العدد جليلة الفائدة ، ما تزال موضع الاستفادة حتى اليوم ، - قد أشبهت كواكبَ الاسحار في سطوع ضوئها وسرعة خبوّها . مع ضرورة الملاحظة أن ذلك الانهيار قد حصل بالتدرّج البطيء ، أي بما هو أقرب إلى الانحدار غير المحسوس . وأنّ عمله التدميري قد حصل بالتمادي . فسقطت مراكز ماوراء النهر أولاً ثم تبعتها قم وأخيراً الرّي . ثم أن كلّ ذلك كان يجري في الوقت الذي كانت مدرسة بغداد الكلاميّة - الفقهيّة الشيعيّة العظيمة قد بدأت تتسلّق سلّم نهضتها الدّاتيّة ، بما يختلف عن هويّة قمّ البحثيّة . ومن هنا نلاحظ أن الصدوقين قد أتمّتا عملهما على كتابيهما ، في الوقت الذي كانت فيه الرّي قد بدأت تتجه اتجاهاً غير محسوس نحو الهبوط . ولذلك ، ربما ، فإنهما حملا كتابيهما إلى بغداد ، حيث طرحاهما للسمع هناك . إلى غير ذلك من ملاحظاتٍ مُشابهةٍ يمكن للعارف الحصيف اكتشافها بالمقارنات الدقيقة . نقول ذلك كي لا يفهم من كلامنا ، أن ذلك الانهيار لأمر التشيع فكرياً في إيران قد حصل دفعةً واحدةً بما يُشبه الضربة القاضية ، التي يسقط فيها المهزوم فجأةً ويغدو عاجزاً عن النهوض .

السؤال الذي يطرح نفسه علينا وعلى القارئ الحصيف الآن هو :

كيف حصل ذلك وبأيّ سبب ؟ كيف انهار ذلك البناء الضخم الواسع الانتشار ، الذي اقتضى استنهاضه جهود عشرات المُحدّثين والعلماء الأفاضل ، المدعومين دعماً شبه مُطلق من قِبَل الأئمة المتوالين حتى وقوع الغيبة ؟ وبفضلهم وبفضل رعايتهم وخدمهم ملكت تلك المراكز من الخبرة والمعرفة ما أهلها للاستمرار من بعدهم بطاقتها الدّاتيّة .

الجواب كامن ، كما هو دائماً تقريباً في هذه الحالة ومثلها ، في الوضع السياسي . لذلك فإنّ علينا أن نصرف البحث إلى سؤالٍ آخر من شقين : كيف كان ذلك الوضع مؤثراً بمعنى من المعاني لظهور النهضة ؟ ثم كيف انقلب بحيث أودى إلى انهيارها ؟ في الجواب نقول :

في الفترة ، ما بين نهوض قمّ ونطاقها في الرّي وما وراء النهر وبين انهيارها ، كانت المنطقة خاضعةً إسمياً للسلطة المركزيّة في بغداد . مُمثّلة بالوُلاة أو بالأسرات المُتعلّبة التابعة لها وإن شكلياً ، مثل بني طاهر الفُرس ، وبني الليث الصّفارين . بل كان منهم شيعة مثل بني دُلف العجليين الأكراد . فضلاً عن دُول العلويين بطبرستان ،

والسّادة الحسينيين بمازندران ، وبني كيا بكيلان . والكلام على هذا الأمر يطول . المُهمّ بالنسبة لنا الآن أنه أثناءها كان العمل البحثي المُتنقّل ، انطلاقاً من قُمّ ، حُرّاً متروكاً لهمة واتجاهات وثقافة أهله ، دون أدنى اكتراثٍ أو اعتراضٍ أو مُعارضةٍ من قِبَل السُّلطة المركزيّة أو المحليّة .

هكذا إلى أن استيقظت الشعوب التركيّة القاطنة خراسان الكبرى ، أي المنطقة الشاسعة المُمتدّة من الهضبة الإيرانيّة إلى روسيا والصين ، - من سُباتها . وهي شعوبٌ كثيرة العدد ، تتكلّم لهجةً أو أُخرى من اللغة التركيّة . تعيش في تلك السهوب المترامية حياةً خشنة عمادها الرّعي . ولكنها ما أن دخلت في الإسلام ، بعد أن حاربتة طويلاً ، حتى اكتشفت نعمة الحياة المدنيّة ، وما تقدّمه من رفاة . فطفقت تخرج من قوقعتها البائسة بكافة الوسائل وتحت مختلف العناوين . وكان منها من نظّمهم عسكرياً مُحترفاً ، أعرّفهم أولئك الذين دخلوا تاريخ الإسلام في إيران والعراق والشام تحت إسم السّلاجقة ، نسبةً إلى سلطان من أسلافهم اسمه سلجوق .

ولقد حمل السّلاجقةُ والرُّك عموماً حيثما حلّوا مواصفات حياتهم القاسية ، الخالية من أي تجربةٍ ثقافيّة . وكان لهم موقفٌ عدائيٌّ خاصٌّ من التشيع وأهله . ليس فقط لأنهم لم يعرفوه في بيّتهم الأصليّة . بل أيضاً وبالدرجة الأولى لأنّ للتشيع مفهومه الحدّي للشرعيّة السياسيّة . في حين أن للمذاهب الأخرى ، بما يجمعها من صفة الإسلام السُّلطوي ، خزانهٌ حافلةٌ بكل ما يخطر بالبال من أشكال التكيّف والتوفيق ، بحيث تُخرج منها صيغةٌ للشرعيّة تُناسب أيّ مُستولٍ على السُّلطة ، مهما تُكن وسيلته إليها .

لذلك كانت المراكز العلميّة الشيعيّة فيما وراء النهر ، كما قلنا أعلاه ، أوّل ما انهار ممّا عرفناه من المراكز المماثلة في إيران . لأنّها نقطة التماسّ بين إيران وخراسان الكبرى .

ذلك المُتغيّر التاريخي الجذري ترجم نفسه في صيغةٍ سياسيّة - اجتماعيّةٍ ثلاثيّة ، خلاصتها : استيلاء العسكريين الدُّخلاء على السُّلطة ومانفعتها . أنتجت على هامشها ولمصلحتها مجموعةً هائلةً العدد من الإقطاعيين (الخوانين) المُستولين على الأراضي الزراعيّة الخصبّة . أمّا الفئات الشعبيّة ، ومنها طبعاً الغالبية الشيعيّة ، فقد انعزلت إلى قاع المُجتمع حيث عانت الفقر والتهميش . وفي هذا السّياق غاب الفقيه المُتّي إلى الغالبية غياباً شبه تامّ ، وترتّب على هذا الغياب انهيار المراكز العلميّة الشيعيّة الأساسيّة

في كلِّ إيران وماوالاها . في حين برز نمطُ آخر من الفقهاء ، ينتمي إلى السُلطة فكرياً / مذهبياً وإلى الإقطاعيين نفعياً . وفي هذا السِّياق من التَّغيب المنهجي المقصود للتَّشيع ومثليه نشأت مقولة أن إيران لم تكن شيعيةً قبل الصفويين . وبني عليها أنهم أكرهوا أهلها على التَّشيع إكراهاً ، تفسيراً للتحوُّل السريع وشبه الشَّامل في وجه إيران الثقافي . على الرغم من غياب أي سندٍ موضوعيٍّ لهذا البهتان العظيم .

كُلُّ ذلك حصل في الوقت الذي ازدهر التَّشيع في الحلة وجبل عامل . ومن هنا نعرف سرَّ ومرمى مشروع علي بن المؤيد الاعتراضي على هذه الصيغة . كما نعرف سبب لجوئه إلى فقيه جبل عامل البارز في زمانه ، مُستنجداً به ليمنح مشروعه مضموناً فكرياً - تبليغياً ، بدونه سيكون قاصراً فارغاً . مع ضرورة ملاحظة أنه لو كان في إيران يومذاك من يمكن أن يقوم بهذه المهمَّة ، لما تطلَّع ابن المؤيد إلى جبل عامل البعيد .

(4)

ذلك الغياب للفقهاء الشيعي في إيران في ذلك الأوان نقرأه ضمناً في كتاب *أسماء مشايخ الشيعة ومصنفيهم* ، المعروف باسم *الفهرست مُنتجب الدين الرَّازي* . وهو من أعلام القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد .

ترجم الرَّازي في كتابه لـ 544 رجلاً أكثرهم إيرانيون . موضع الملاحظة هنا ، أن القارئ لا يجد بينهم إلا قلةً قليلةً ممن منحهم المؤلف صفة " فقيه " ، وأقلُّ منهم من له كتابٌ مُصنَّف . أمَّا الأكثر منهم فهم بين " صالح " ، " دين " ، " فاضل " ، " أديب " ، " عدل " ، " واعظ " ، " ورع " ، " ثقة " . الأمر الذي يدلُّ على هبوط الاعترافات التي دعت المؤلف إلى نسق الشخص في كتابه . هبوطاً عبَّر عن مثله أحد الشعراء بالبيتين السَّائرين :

لعمرُ أبيك ما نُسب المُعلّى إلى كرمٍ وفي الدنيا كريمٌ
ولكنَّ البلادَ إذا اقشعرت وصوَّح نبتُها رُعي الهشيمُ

وإنَّ أنسَ فلا أنسى يوم راسلني الصديق ستيفان فيبر Staphan Waber ، وهو من أفاضل المُستعربين الألمان المُعاصرين ، شغل وما يزال منصب مدير القسم الإسلامي من متحف برلين ، - برسالةٍ أرفقها بصورةٍ لمحراب مسجد من مُقتنيات المتحف ، أصله من كاشان ، يرجع تاريخه إلى القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد . رُقم عليه (آياتٌ) قرآنيةً ركيكة ، فتساءل : هل أن هذه الآيات التي لا

وجود لها في القرآن ، بالنحو الذي رُقمت فيه ، تدلُّ على أن لدى الشيعة قرآنٌ غير الذي بين المسلمين من غيرهم ؟

في الجواب قلتُ لصاحبي : بل هذا يدلُّ على أن راقمَ تلك الآيات كان على جهلٍ مُطَبَّقٍ بالقرآن ، بحيث لا يُحسُنُ منه بضع آيات . بل وعلى جهلٍ مُمَثِّلٍ لدى أهل المدينة كافةً ، وإلا لأقاموا القيامة عليه . فإذا كان ذلك هو الشأن في كاشان (بلد الإيوان) ، فما قولك بسواها من قُرى ودهات إيران في ذلك الأوان !

(5)

نخلصُ من مجمل هذا التوصيف للأحوال في إيران عشيَّة قيام الدولة الصفويَّة ، بوجوهها السُكَّانيَّة والسياسيَّة والمعنويَّة ، إلى أن الشيعة الإماميَّة كانوا الغالبين فيها عددياً كميّاً . ولكنَّهم كانوا على درجةٍ فظيعةٍ من الانفصال عن ذاتهم الثقافيَّة ، إلى درجة أنهم باتوا ضحايا ما يُسمَّى اليوم في اللغة الأنثروبولوجيَّة بـ (الاغتراب) . وهي حالةٌ فصاميَّة ، تنجح فيها قوةٌ إستكباريَّةٌ قاهرةٌ بالفصل بين المجتمع وذاته المعنويَّة ، بحيث يغدو فاقد الرغبة والمقدرة على التَّسامي بذاته فكرياً وأدبياً وفنّياً . . . الخ . وتنحصر مطالبه من هذه الحياة الدنيا بالبقاء حيّاً . فيسود الجهل ، وتشيع الأوهام والخرافات ، وضروب الطقوس الدينيَّة الفارغة ، التي تقدِّم نمطاً من العزاء الموهوم لأصحابها .

تلك هي القاعدة التي ينبغي أن ينطلق الباحثُ منها نحو التقييم التاريخي لدور الدولة الصفويَّة في توحيد إيران ، بعد قرونٍ من التفتُّت الاجتماعي ، والفتن الدمويَّة تحت شعاراتٍ مذهبيَّة . هي في الحقيقة مجرد غطاءٍ للشقوق الأوقاميَّة / الإثنيَّة ، التي تعزَّزت على أيدي العناصر العسكريَّة الدَّخيلة . فكان من أهمِّ إنجازات الدولة الجديدة أن عطَّلت تأثيرها ، دون أن تقضي عليها طبعاً ، وأنَّى لها . وذلك باستعادة هويَّتها المعنويَّة الأصيلة ، وباستعادة وهجها الفكري الذي كانت عليه قبل دخول تلك العناصر العسكريَّة في الصورة السياسيَّة للبلد . وبذلك كوَّنت رابطةً جديدةً أسمى من كلِّ رابطةٍ قائمة . أثبت الزمان حتى اليوم كم هي عصيَّةٌ على كلِّ ضروب التفتُّت والتقسيم .

ذلك الإنجاز، الذي لانجدُ له شبيهاً في كلِّ تاريخنا كمسلمين إلا في الرسالة النبويَّة وسياستها التوحيدية ، التي صبَّت جهودها على تعطيل عوامل التجزئة والفُرقة ، دون المُحاولة المُستحيلة للقضاء عليها ، - ذلك الإنجاز يقرأه المؤرِّخ العارف فيقدِّره

حقَّ قدره . ويحار عنده الآخر المُتَحَيِّز أو الفقير البضاعة . فيقول الأوَّل أن التشيُّع قد فُرض على الناس فرضاً كُرهاً عنهم . ويقول الثاني أن تشيُّعها غير أصيل (تشيُّع صفوي !)

والحقيقة ، التي لأشكُّ في أن القارئ اللبيب قد بدأ يلمسها ، أن السياسة التي التزمها الصفويون ، وبنى عليها المهاجرون إلى إيران من علماء جبل عامل العمل الذي أدَّوه بكامل الجدارة والكفاية ، كان عملاً تبليغيّاً بكل ما للكلمة من معنى . وهو بالتأكيد لم يكن عملاً مذهبيّاً انقلابياً .

وعلى كلِّ حال ، فإنَّ أولئك العلماء الذين نزلوا إيران قادمين من بلدهم البعيد الأسير ، لم يكونوا بحاجةٍ إلى العمل باتجاه التغيير والانقلاب إطلاقاً . شأن العالم الذي يجلُّ بين ينتمون إليه وينتمي إليهم ، ويكونون بحاجةٍ إلى المعرفة التي يملكها . فيأتي عمله إرشادياً تبليغيّاً ، ويتلقاه الناس عنه بكامل الغبطة والرّضى . وذلك يُفسّر لنا السهولة والتلقائية التي صاحبت استعادة أوسع الجماهير وجهها الضائع . وهو الوجه الذي كان مقسوراً على أن يكون بحالة عطالة ، تحت وطأة السياسي - العسكري الأجنبي وذيله الإقطاعي . وعلى هامش الاثنين وبخدمتها الفقيه النّفعي . ولو ان الأمر كان انقلابياً مذهبيّاً لكان من المُستحيل أن يتمّ بهذه السهولة . ولحفظ لنا التاريخ إشاراتٍ على الأقل تدلُّ على العكس . ولم يقتصر ذكراً على خطيئة الشاه إسماعيل يوم أقدم على قتل بعض الفقهاء في هراة . بل إن من المعلوم أن هذه المدينة ونطاقها ، لم تزل إلى اليوم على الحالة التي كانت عليها ، يوم دخلها الشاه إسماعيل فاتحاً . كما أن ما يعرفه أدنى الناس درايةً بتاريخ إيران ، أن المناطق التي كانت سُنيّة صافيةً قبل الصفويين ما تزال إلى اليوم على مذهبها . فلو أن الأمر كان أمر إكراه نجح فيما رمى إليه ذلك النجاح العريض في كافة أنحاء إيران ، لكانت له نتائج مختلفة كلِّ الاختلاف .

(6)

في ختام هذا الاستقراء لمكوّنات نهضة إيران في العصر الصفوي ، الذي أعاد لها وجهها الأصيل المُغيّب ، وما عقّبنا عليه من تحليلٍ وتركيب ، في إطارٍ نقديّ ، - نقول :

في ذلك السّياق من العمل التبليغي حصرّاً ، برُزت نُخبةٌ جديدةٌ من كبار المُتّفنّين المُتّمين / العُضويين : فقهاء ومُحدّثون وفلاسفة... الخ. أغنوا المكتبة

الإسلامية بمئات المؤلفات في كافة فروع المعرفة ، ما لا يزال بعضه على الأقل موضع العناية والاستفادة حتى اليوم . ومن المؤكد أن ذلك الإنجاز لم يكن ليحصل لولاه ، وخصوصاً لولا الهويّة الصّرف تعليميّة للنهضة . ما ينبغي أن يكون توصيفه وتقييمه موضع عناية الباحثين الإيرانيين خصوصاً ، لأنهم الأدرى بإدته . وخصوصاً أكثر في ظلّ النهضة الثانية وابتتها الجمهوريّة الإسلاميّة . وأن لا نسكت على كلام من مثل ما يقول ، أن كلّ ما عمل عليه أولئك الرّواد وما أنتجوه من بدائع ليس إلا " تشييع صفوي " ، في مقابل تشييع آخر مُختلف يوصف بـ الـ " علوي " . هذا تصنيفٌ للتشييع خطيرٌ جداً . أولاً لأنه مزاجيٌّ غير مبنيٍّ على قاعدةٍ مُبيّنة لما هو " علوي " ولما هو " صفوي " . وبذلك يمكن أن يُستخدم استخداماً عشوائياً حسب غرض القائل . وثانياً لأنه نمطٌ من الإدانة الدّاتيّة ، سيتلقّفها ذوو الأغراض بسرور كما حصل بالفعل . خصوصاً في الجو الصّراعي الذي نجتازه منذ قيام الجمهوريّة الإسلاميّة .

إننا نتساءل : إن يكن كلّ تلك الإنجازات التي حصلت بفضل النهضة الصفويّة مجرد تشييع صفويّ ، فما هو إذن التشييع العلوي ، وكيف بالله عليكم يكون ؟ ! دون أن يعني ذلك بالضرورة الوقوف موقفاً حدّياً في وجه كلّ نقدٍ لبعض المعالم الفكرية والسلوكيّة لتلك الفترة . بل الذي ننعاه على أهله ، أن نضع كلّ تلك الإنجازات في سلّةٍ واحدة ، ثم نشير إليها مُنذرين مُحدّرين : " تشييع صفوي " .

هوامش

- 1 – انظر ديوان خطايي بالتركيّة الأذريّة .
- 2 – انظر كتابنا الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفوي أسبابها التاريخيّة وآثارها السياسية والثقافيّة / 66 . وأحسن التواريخ / 124 ، رياض العلماء : 312/2 ، مستدرك الوسائل : 432/3 .
- 3 – للتوسّع والتوثيق كتابنا رجال الأشعريين من المحدثين وأصحاب الأئمة (ع) .
- 4 – انظر الفصل المُخصّص للري وما وراء النهر من كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسه .
- 5 – الزّاوندي ، محمد بن علي : راحة الصدور وآية السرور / 74 و 101 و 548 والمستوفي : نزهة القلوب / 74 ومراصد الاطلاع : 1057/3 .
- 6 – Browne "A litrary history of Persia" vol.4. p.56
- 7 – روضات الجنات : 25/2 .
- 8 – نزهة القلوب / 59 ومعجم البلدان : 370/1 .
- 9 – من المعروف أنّ شمس الدين محمد الآوي كان رسول علي بن المؤيد إلى الشهيد يستدعيه للحضور . وقد ساهم بلديّه تاج الدين الآوي مساهمةً كبيرةً في دفع محمد خدابنده إلى إعلان التشيع مذهباً رسمياً .
- 10 : ابن بطوطة : الرحلة / 124 .
- 11 - نزهة القلوب / 68 .
- 12- هاشم البحراني: مدينة المعجزات في النصّ على الأئمة الهداة / 495 .
- 13 – مجالس المؤمنين / 42 .
- 14 – Baussani, A. Religion in the Selguk period "The Third plate in the 5th vol. of "The religion history of Iran" p.294.
- 15 – مجالس المؤمنين / 31-32 و 44 على التوالي .
- 16 – نفسه / 42 .
- 17 – راحة الصدور / 58 ، 548 ونزهة القلوب / 76 .
- 18 – Bossani , op.cit.p.29 .
- 19 – نزهة القلوب / 94 .
- 20 – Bossani, op.cit.p.29

- 21 _ Browne,op.cit.vol.4 p.60
- 22 _ Bossani,op.cit.p.174 وإسماعيل مهجوري : تاريخ مازندران :1/ 203 .
- 23 _ مجالس المؤمنین /304 .
- 24 _ كامل مصطفى الشبيبي : الفكر الشيعي والنزعات الصوفيّة حتى القرن الثاني عشر/341.
- 25 _ القرماني : تاريخ الدول /344 .
- 26 _ عبد الحسين زرين كوب : ملاحظات إنتقاديّة على تاريخ كمبردج لإيران . مقالةٌ في دوريّة المعارف الإسلاميّة ، جمادى الأولى 1393هـ/1973م .
- 27 _ Bossani,"The Persians" p.130.
-